الفصل العاشر

فكرة التحرر في مشروع مالك بن نبي الحضاري

عبد الوهاب خالد(*)

مقدمة

إن المحور الذي تدور حوله أفكار مالك بن نبي هو مشكلات الحضارة، ولذلك نجد كتبه جميعها تقريباً قد صدرت تحت عنوان ثابت هو **مشكلات الحضارة**. وتميّز منهجه بالمنطق والتأمل العميق والمقدرة على التحليل، ولعل تكوينه الرياضي والعلمي ساعده على ذلك، كما كان فكره يتسم بالحيوية والتركيز والفعالية، إذ إنه لا يريد أن يقول كلاماً مجرداً، بل يريد أن يفكر تفكيراً مؤثراً، ويقول كلاماً منطقياً يمكن أن يتحول إلى عمل ونشاط؛ إذ ليس المهم عنده كثرة المعلومات والمعارف، ولكن المهم هو «تنظيم هذه المعارف في مفاهيم تربوية تسير بالإنسان خطوة متقدمة»(١).

لقد عاشت فكرة «الحضارة» في عقله ووجدانه، وشغلت تفكيره في كل كتاباته إلى درجة أن الفكر الإسلامي المعاصر لم يشهد تقريباً مفكراً مثله شغلته قضية الحضارة بهذا القدر؛ فهو يعتبر شخصية فكرية خصبة جديرة بالدراسة، وهو المفكر الذي أهتم بالجانب الحضاري وفلسفة التاريخ والاجتماع، وشغلته مشكلات أمته فعالجها بروح موضوعية.

ومن جملة المشكلات التي عُني بها مشكلة الاستعمار، وكيفية العمل على

(*) قسم الفلسفة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة باتنة ـ الجزائر.

(١) عمر كامل مسقاوي، **نظرات الفكر الإسلامي ومالك بن نبي** (دمشق: دار الفكر، ١٩٧٩)، ص ٢٦.

تحرير الإنسان فكراً وسلوكاً من رواسب الاستعمار، ودفع عجلة الحضارة العربية والإسلامية نحو التقدم والتطور لاستعادة ريادتها. ولأجل ذلك كان لفكرة القابلية للاستعمار عند شعوب العالم الثالث، ولفكرة التحرر وقع خاص في مشروعه الحضاري، فما موقع هذه الأفكار من هذا المشروع؟ وما دورها في تغيير فكر وواقع المسلم وإنسان العالم الثالث؟ هذا ما سنحاول توضيحه في هذه المداخلة.

أولاً: موقف مالك بن نبي من الحركات الإصلاحية

اعتبر مالك بن نبي صوت جمال الدين الأفغاني أول صوت يرتفع بعد قرون الظلام، ليوقظ العالم الإسلامي ويبث فيه روح النهضة، ولذلك كان للأفغاني الفضل الأول في يقظة العالم الإسلامي في العصر الحديث، وقد وصل تأثيره إلى جميع الأقطار الإسلامية، ومن بينها الجزائر.

ويقدر مالك بن نبي جهد محمد عبده، الذي قدم لنا أول عمل فكري جيد بعد ابن خلدون، تمثّل في كتابه **رسالة التوحيد**، وبذل جهداً كبيراً في سبيل تنوير الأذهان ونشر الثقافة.

لقد تناول كل من الأفغاني ومحمد عبده قضية النهضة من زاوية مختلفة؛ إذ تناولها الأول من الزاوية السياسية، بينما نظر إليها الثاني من الزاوية التعليمية ونادى بإصلاح علم الكلام، ولكن مالك بن نبي يرى أن المشكلة ليست بهذه الصورة.

يرى مالك بن نبي أن حركة النهضة الجديدة ـ بالرغم من فضلها في تبديد الظلام الذي كان يسود العالم الإسلامي ـ قد اهتمت بإصلاح العلم، ولكنها لم تهتم بالشرط النفسي الاجتماعي، إلا أنه يستثني من ذلك الإصلاح في الجزائر بفضل شخصية عبد الحميد بن باديس (الذي قدر لإشعاعه أن يبلغ أعماق الضمير الشعبي).

وقد كانت حركة العلماء المسلمين الجزائريين أقرب الحركات الإصلاحية إلى النفوس، وكان عبد الحميد بن باديس هو الذي أدخل الجزائر في إطار الحركة الإسلامية العامة؛ إذ إنه تأثر بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا.

لقد تأثر مالك بن نبي بأفكار الذين سبقوه من رجال النهضة، فأخذ عن جمال الدين ثورته على الجمود والاستعمار اللذين كانا يسيطران على الأقطار

الإسلامية، ولكنه لا يؤمن بأن الاستعمار وحده هو سبب تخلف المسلمين، بل إن هناك عاملاً آخر نسيه المسلمون، وكان من المفروض أن ينتبهوا إليه (عامل القابلية للاستعمار)، وشارك محمد عبده في اهتمامه بالتربية والتعليم لأن الثقافة هي أساس النهضة، ولكن مالك بن نبي لا ينظر إلى الثقافة على أنها تكديس للمعارف والمعلومات بل على أنها نظرية في السلوك.

ويتفق مالك بن نبي مع محمد إقبال في دعوته إلى تميز المسلم عن الأوروبي المعاصر، ويرى في هذا التميز الشرط النفسي اللازم الذي يعيد إلى المسلم ثقته بنفسه، ويحرره من عقدة الشعور بالنقص.

يؤمن مالك بن نبي بأن حركة الإصلاح الحديثة استطاعت أن تزيل الركود الذي ساد العالم الإسلامي طوال خمسة قرون، حين جعلت المسلم يشعر بمأساته ويلتمس طريقه نحو النهضة، ولكن هذه الحركة تعثرت لأنها لم تحدد غاياتها، والمشكلات الاجتماعية التي تواجهها، والوسائل التي يجب تتبعها، إذ يرى أن شخصيات المصلحين لأسباب تخلف العالم الإسلامي لم تكن، على أهميتها، موفقة تماماً لأن معظمها كان يتناول الأعراض. وقد أدى ذلك إلى مرور وقت طويل، والأطباء يعالجون الأعراض لا المرض، وأن المشكلة ـ عنده ـ «هي مشكلة المجتمع الإسلامي الذي بقي خارج التاريخ مدة طويلة، يشكو المرض ولا يجد الدواء المناسب وينشد النهضة وهو مكبل بقيود نفسية وفكرية واجتماعية. لقد كان الأطباء يقفون عند الأعراض، ولم ينتبهوا إلى حقيقة المرض، ومن هنا أصبح كل دواء عقيماً، والسبب في ذلك ـ كما يرى ـ يكمن في أن مقياس الحضارة قد قُلب رأساً على عقب، إذ إن المقياس العام هو أن تلد الحضارة منتجاتها لا العكس»[٢].

ومن هنا يرى مالك بن نبي أن الاتجاه الصحيح للخروج من الأزمة هو الاتجاه نحو بناء الحضارة وفقاً لشروطها، وذلك يقتضي وعياً كاملاً بالتاريخ باعتباره «عملية اجتماعية محددة الأسباب والنتائج مرتبطة بمصير الإنسان»[٣] وفهماً للسنن النفسية والاجتماعية. كما يجب على الحركة الإصلاحية أن تهتم بتغيير النفس، وأن

---

(٢) مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي (دمشق: دار الفكر، ١٩٧٩)، ص ٥٥.

(٣) مالك بن نبي، **حديث في البناء الجديد: وهي مجموعة محاضرات ألقاها المفكر الجزائري الكبير مالك بن نبي في لبنان والإقليم الشمالي (سوريا)**، جمعها وترجم لمؤلفها عمر كامل مسقاوي (دمشق: دار الفكر، ١٩٧٩)، ص ١٢١.

تترجم فكرة الوظيفة الاجتماعية إلى لغة واقع، ولا تقتصر على إثارة المشكلة من جانبها العقلي فقط، وذلك يقتضي منها أن تواجه مشكلة الثقافة في أصولها.

ثانياً: الاستعمار والقابلية للاستعمار

عندما جاءت أوروبا إلى العالم الإسلامي، لم تأت بهدف تحضيره وتمدينه بل كانت تهدف إلى استعماره واستغلاله، ومن هنا كانت نظرتها إلى المسلم نظرة إلى «موضوع» يمكن استغلاله وليس إلى «ذات» مفكرة يمكن احترامها وتقديرها، وبالتالي فإن الاستعمار يحاول ـ بطريقة منهجية ـ أن يطمس كل محاولة جادة للبعث بلنهضة، ولكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا إذا كانت الشعوب المستعمَرة ذات قابلية للاستعمار.

ويرى مالك بن نبي أن الاستعمار ليس هو السبب الوحيد لعجز الناس وخمولهم، بل إنه قد يكون ـ إذا نظرنا إليه كعلماء اجتماع ـ عاملاً يكتسي طابع الضرورة التاريخية، ويساعد الشعوب المستعمَرَة على التغلب على قابليتها له.

كما يريد أن ينبه الشعوب المستعمرة إلى عدم قبول الاستعمار والرضوخ له، وإلى ضرورة التفتيش عن عيوبها الداخلية ونقاط الضعف فيها، حتى لا تجعل من الاستعمار «مشجباً» تعلق عليه كل الأخطاء وظواهر الكسل والتخلف.

والاستعمار إذ يحاول أن يحطم طاقات الإنسان المستعمَر، قد يكون له جانب إيجابي دون إرادة منه، إذ يوقظ في الشعوب المستعمَرَة روح التحدي، ويحركها للتغلب على واقعها السيئ، وتنتصر في النهاية لأن الواقع الاستعماري لن يستمر إلى الأبد؛ إذ إن قوى الإنسان الجوهرية تتغلب أخيراً على جميع ضروب التناقض. ولا يعني ذلك أن الاستعمار يهدف إلى تحريك الشعوب ونهضتها، ولكنه يغيّر ظروف الشعوب المستعمَرَة، وبالتالي يدفع هذه الشعوب إلى تغيير واقعها، ولذلك فإن من الواجب أن ندرس مشكلة التخلف من زاويتي الاستعمار والقابلية للاستعمار.

كما يرى مالك بن نبي أن الاستعمار نتيجة وليس سبباً، ولذلك فإنه لكي يتحرر المستعمَر من النتيجة يجب أن يتحرر أولاً من سببه وهو القابلية للاستعمار، وأن على المستعمَر أن يفكر في استخدام الوسائل المتاحة له بطريقة مؤثرة للتغلب على مشكلاته، وأن للاستعمار نصيبه من أسباب التأخر، كما أن للقابلية للاستعمار نصيبها كذلك، ولذلك نجد مالكاً يوزع المسؤولية على هذين العاملين

توزيعاً منصفاً فيجعل «الدهاء والمكر والخداع والنهم والشراهة من نصيب الاستعمار»، بينما يجعل «الدناءة والسفالة والنجاسة والخبث والخيانة من نصيب القابلية للاستعمار»[٤].

إن الاستعمار يعمل على حرمان المستعمَر من امتلاك الوسائل الضرورية لنموه وتقدمه، ولكنه لا يستطيع أن يمنعه من استخدام الإمكانيات المتاحة له والقيام بمحاولة رفع مستواه أو استغلال وقته بالطريقة المناسبة، وبدلاً من الاستسلام والخنوع لمشاريع الاستعمار والعمل على إنجاحها، يستطيع المستعمر أن يغيّر من وسائله، وأن يستغل إمكانياته المتاحة، متى تغيرت نفسه وأدرك إنسانيته وشعر بمسؤوليته.

إن الاستعمار يفرض على حياة المستعمَر عاملاً سلبياً هو «العامل الاستعماري»؛ إذ يضع الطريقة المناسبة لاستمرار الاستعمار، ويرسم سياسة مدروسة تكفل له وجود مستعمَرين طبيعيين أفقدهم الجوهر وزرع فيهم الشعور بالنقص، وحطم قواهم الكامنة فيهم، وقلل من قيمتهم، ومنع عنهم الأشياء الضرورية التي تغذي جسمهم وتنمي فكرهم، ووضع أمامهم السدود والموانع حتى يفقدوا إنسانيتهم، من خلال شبكة دقيقة وأساليب مدروسة تسلبهم كل وسيلة لانتظام حياتهم وتقدمها، وتبث حولهم الأفكار المسمومة التي تقلل من قيمتهم وتعرقل مصالحهم، بخبث ودهاء. وبذلك لا يستطيع الإنسان المستعمَر أن يقوم بأعمال إلّا في الحدود التي يسمح بها المستعمِر ويعيش (كأن يداً خفية، وتارة مرئية، شتتت معالم طريقه، وتُقصي باستمرار أمامه العلامة التي تحدد هدفه، فلا يدرك أبداً)[٥].

ولكن ذلك لا يعني أن الاستعمار مسؤولٌ وحده عن تخلف الشعوب المستعمَرة، ومن الواجب أن ندرس ظاهرة الاستعمار دراسة علمية. إن الاستعمار يعتبر نكسة في التاريخ البشري، وإن أصوله ترجع إلى روما حيث سجلت الدولة الرومانية طابعها الاستعماري، الذي كان يهدف إلى إخضاع الشعوب ونهب ثرواتها، ولكن الاستعمار، مع ذلك، ودون إرادة منه، أوقظ الشعوب المستعمَرة (بعد أن خلع عليها بابها، وزرع دارها، وأخذ منها حريتها وسيادتها

---

(٤) مالك بن نبي، **بين الرشاد والتيه**، [أعده للنشر عمر مسقاوي] (دمشق: دار الفكر، ١٩٧٨)، ص ١٧٣ ـ ١٧٤.

(٥) ابن نبي، **شروط النهضة**، ص ١٤٧.

وكرامتها)[٦]، ولكن الاستعمار لا يمكن أن ينجح في مهمته إلا إذا وجد لدينا قبولاً واستعداداً للرضوخ له، ولذلك فإن القضية عنده «منوطة أولا بتخلصنا مما يستغله الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته من حيث نشعر أو لا نشعر»[٧] ورفضنا لأساليبه.

لقد درس الاستعمار نفسياتنا دراسة عميقة، وأدرك مواطن الضعف فيها، وسخّرنا لما يريد. ولذلك فإنه لا يمكن للشعوب المستعمَرة أن تستقل، والجماعات المضطهدة أن تتحرر، إلا إذا تحرر وجدانها من الداخل، وقد قال أحد المصلحين «أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم».

ثالثاً: فكرة التحرر كأساس للتغيير الاجتماعي

تبدو ثورة التغيير الفعلية ـ في نظر مالك بن نبي ـ في تحرير الإنسان من عقد النقص والانبهار بمظاهر ما عند الأوروبيين، وبتحريره من الترسبات الوراثية في مجال التواكل والخرافة، وبإعادة اللحمة بينه وبين قناعاته وعقيدته وسلوكه وعمله. ليس المهم في بناء الإنسان الجديد أن نبدل له نمط أو زي لباسه ونوعية أثاث منزله ومكتبه، ونوع سيارته وكمالياته، ولا المهم أن نوسع له ملكيته ونزيد في مقتنياته، ولا أسماء اللافتات المرفوعة في شوارعه، ولكن المهم أن نحدد له إطاره الحضاري في مجال الثقافة والأخلاق والاقتصاد المجالات الأخرى كافة، وبشكل آخر أن نقتلع القابلية للاستعمار من عالَمه الداخلي، حتى تنطلق طاقاته لتصفيته من عالمه الخارجي. فتحرير الأرض يجب أن يلازمه، أو بالأحرى أن يسبقه تحرير الإنسان، لأن ذلك هو النهج الموصل للتخلص من الاستعمار، لأنه «قد تتغير خريطة توزيع الملْكية في الوطن، وقد يسند إلى أبناء الوطن وظائف كان المستعمرون يشغلونها، وقد تبدل الحروف اللاتينية بحروف عربية على واجهات ولافتات الحوانيت، إلا أن التغيرات هذه جميعها مجرد سحر للأبصار ولا يستقر أمرها إذا لم يتغير الإنسان نفسه... فثورة ما لا تستطيع بناء وضع جديد والحفاظ على مكتسباتها إلا إذا كان أثرها في تصفية الاستعمار فعالاً في تصفية الإنسان من القابلية للاستعمار، فتصفية الاستعمار من الإنسان تشترط تصفيته في الأرض ويجب أن تتقدمها»[٨].

---

(٦) ابن نبي، **بين الرشاد والتيه**، ص ١٤٩.

(٧) ابن نبي، **شروط النهضة**، ص ١٥٤.

(٨) ابن نبي، **بين الرشاد والتيه**، ص ٤٤.

تزداد أهمية الإنسان المتحرر كلما رقت الثورة، لأنه هو الضمانة لعدم انحراف سيرتها وعدم توقف حركتها عن السير إلى الأمام. إن الإنسان المسلم بعد مرحلة السقوط العام هو الذي سهل الطريق للاستعمار كي يحقق أهدافه، فتحول بذلك إلى مستعمَر وقابل للاستعمار. فوجود الاستعمار واستمراره رهن بإقرار الفرد به في البلدان المستضعفة، فالداء هو في إقرار الفرد بالاستعمار والرضا به، بمجرد الجمود والسكوت، والإنقاذ هو تحريك هذه الذات وإيقاظها من سباتها، فالبدء من الذات هو أساس الإصلاح، والتغيير، وتجاهل دور الإنسان هو قصور وعي خطورة هذا الموقف، إن «هذه الملاحظة تسجل خطأ السياسات التي اتبعها العالم الإسلامي في الصميم، فقد اتجهت في كفاحها إلى المستعمِر، دون أن تلتفت إلى الفرد الذي تسخره للقضاء على الاستعمار»[٩].

وهنا تبرز الإشكالية التي وقعت فيها أغلبية الحركات التحررية في العالمين العربي والإسلامي، حين عملت على تصفية الاستعمار من وجوده المباشر، دون أن تعير اهتماماً للإنسان والشعب بشكل دقيق، علماً أن الشعب يجب أن يكون هو القائد، هو الملهم للطلائع في تحركها، ذلك بأن نجاح أي حركة ثورية رهن بخلق الثورة في ذات الإنسان، فهو أساسها وضمان استمرارها، وعلى أي حال، «فالثورة لا تستطيع الوصول إلى أهدافها، إذا هي لم تغيّر الإنسان بطريقة لا رجعة فيها من حيث سلوكه وأفكاره وكلماته. وإذا ما نظرنا إلى الأمور في عمقها فإن ثورة ما، لا بدّ لها أن تسير طبقاً للقانون الاجتماعي الذي تشير إليه الآية الكريمة **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾**[١٠].

تتحقق ثورة الحرية والتقدم بدءاً من النفس، وبهذا السبيل تتعدل شخصية الإنسان، ويتم توازنها وتتعانق الروح والمادة فيها، وبهذا النوع من الأفراد تعود الروح القرآنية إلى توجيه السلوك في المجتمع، فتكون الثمرة نهضة شاملة في العالم الإسلامي بحاجة إلى إحياء القيم الموجهة لحركة البناء على أرضية إسلامية، لأن النهضة (هي في أن يجمع بين العلم والضمير، وبين الخلق والفن، بين الطبيعة وما وراء الطبيعة حتى يتسنى له أن يشيد عالمه طبقاً لقانون) أسبابه ووسائله، وطبقاً لمقتضيات غايته. إن الذي يرد إلى عالم شبابه لا بدّ أن يكون إنساناً جديداً، قادراً على حمل مسؤوليات وجوده مادياً وروحياً كممثل وشاهد... ولكن العالم

---

(٩) مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة عبد الصبور شاهين (بيروت: دار الفكر، ١٩٥٩)، ص ١٠٥.

(١٠) **القرآن الكريم**، «سورة الرعد،» الآية ١١، وابن نبي، **بين الرشاد والتيه**، ص ٤٦.

الإسلامي على الرغم من ذلك لديه قدر كبير من هذا الشباب الضروري[١١]. ولكن هذا الشباب تائه متخبط من أثر التغلب الفكري للاستعمار. والخطوة التغييرية مهمة انطلاقاً من تحديث المنهج الإسلامي القادر على بعث الحياة من جديد في جسد أردته سقطاته التاريخية وغزوات الاستعمار جثة هامدة.

وعلى هذا الأساس نجحت مجتمعات عديدة في الانتصار على الذات وعلى الاستعمار، من أجل تحرير الأرض والإنسان، والمثال القريب على ذاك ما حصل في الجزائر، عندما توجهت الجهود، وخاصة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى التربية لصياغة ذات الناشئة صياغة جديدة إسلامية عربية متحررة من أساليب الفرنسة والتنصير والإدماج، فكان من التربية تغيّر الذات، وكانت الثورة التحريرية تهدف إلى الحفاظ على شخصية الجزائر الإسلامية العربية.

يتأسس أي عمل مبني على أرضية إسلامية على النظرة الشاملة للأمور التي تعلي شأن الجماعة، وتمقت الفردية الصادرة عن «الأنا» الطفيلي والتي ترغب في تحقيق سعادتها على حساب الجميع. ومن انطلاق النهضة، وثورة التغيير في العالمين العربي والإسلامي، بدءاً من الإنسان الذي تهدف حضارة الإسلام إلى إسعاده، يجب التنبه إلى أن هذا التركيز على الذات لا يعني على الإطلاق أن فلسفة النرجسية يجب أن تسود بدلاً من فلسفة الفكرة الاجتماعية والسياسية المستمدة من روح الإسلام الذي أُرسل به النبي (ﷺ) رحمة للعالمين.

فالفردية التي تغذيها النظريات الأوروبية هي أم الآفات المؤدية إلى الهلاك، فهي تحمل بذور التناقض والتنابذ، وتشجع على الاستغلال من الإنسان لأخيه الإنسان ويسعى صاحبه إلى مصلحته الخاصة حتى ولو ضحى في سبيل ذلك بمصلحة الوطن واستقلاله.

يحمل التحرر الفكري في طياته، دوافع وأهدافاً وبرامج للتحرر الثقافي والسياسي، ولهذا السبب يتأهب الاستعمار مستنفداً كل قدراته المتاحة لتعطيل دور الفكر، في البلاد الخاضعة لسيطرته. وبالمقابل من مستلزمات التحرر في البلدان المغلوبة أن تبرمج حركتها بفضل أفكار مصلحيها، محققة الربط بين الأفكار والحركة السياسية المؤدية إلى الاستقلال، وأن يتلازم مع ذلك ويستمر تحقيق استقلال شخصية الإنسان، بتخليصها من عقد النقص، وتجنيبها المحاكاة

(١١) ابن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ص ١٩٢.

لكل أشياء الغرب. من المتوجب بنسبة كبيرة «أن نرى كيف يرتبط الصراع الفكري بالقضية السياسية في البلاد المستعمرة، إذ إن هذه القضية تشتمل على مسألتين هامتين هما حسب اطرادهما الطبيعي:

- تجميع قوى الكفاح التحرري من أجل الاستقلال السياسي.

- توجيه هذا التحرر من أجل الاستقلال النفسي»[١٢].

إن للأفكار الدور الحاسم في تحرير الجماعات، إذا أحسن الالتزام بها، والعمل بتوجيهاتها، ولكن هذا لا يعني أن أي فكر ينفع في التحرر لمجرد نجاحه في بلد آخر، فالبلدان بأفكارها الصالحة والطالحة، تشبه الجسد المريض بوصف الدواء له، وحتى لو تشابه المرض أحياناً لا يمكن استعمال الدواء نفسه، قبل أن تدرس باقي خصائص الجسم وأمراضه الأخرى، وهذا يستدعي أن يكون لكل بلد أفكاره النابعة من خصائصه، والحلول المعالجة لمشكلاته، والتي صاغها أبناؤه وبالتالي: «لا يمكن لمجتمع في عهد التشييد أن يتشيد بالأفكار المستوردة أو المسلطة عليه من الخارج، سواء كانت تمتّ إلى الاستشراق أو الشيوعية»[١٣]. هذا الموقف ضروري للعمل الإصلاحي، ومهم التنبه إلى تأثيره في ظرف تستنهض فيه الشعوب الإسلامية والعربية، حيث يسعى الاستعمار إلى إعادة التمويه على هذه الشعوب، بأن يصدّر لها أفكاراً جديدة بمظهرها ملونة بالأحمر أو الأزرق، ولكنها في مضمونها تحمل القناعات الاستعمارية القديمة، برداء الحرية والإخاء والمساواة، كما هو حال الثورة الفرنسية، أو الماركسية والاشتراكية كما هو حال البلدان الأوروبية الشرقية. هذه الوسائل التمويهية الجديدة المضافة إلى النهج الأوروبي القديم تستدعي أكثر من أي وقت مضى إعادة الاعتبار في العلاقات الاجتماعية والمناهج العملية، إلى تحصين الأفكار بالروح الحضارية الباعثة على الماضي، روح الإيمان والأصالة، لأن السقوط الفكري والأخلاقي هو أساس المشكلة إذ «إن مجتمعنا أصبح يعاني في قيادته أزمة أخلاقية وفكرية، تجعله بصفة عامة لا يحقق للأفكار ثبوت حصانتها وفاعليتها فيه حتى أنها تكون معرضة للدس إمّا لضعف أخلاقي يحيط بها وإمّا لضعف فكري يخذلها. غير أننا إذا ما تفحصنا هذه الحالة على ضوء تجربة طويلة فسوف نجد أن الضعف هو أقوى العوامل تأييداً

---

(١٢) مالك بن نبي، **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة** (دمشق: دار الفكر، ١٩٨١)، ص ٤٦.

(١٣) مالك بن نبي، **إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث** (القاهرة: مكتبة عمار للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٠)، ص ٦٢.

ومساعدة لمساعي الاستعمار في جبهة الصراع الفكري[١٤]. وبالمقابل يكون النجاح الفكري وسيلة القضاء على النفوذ والسيطرة الاستعماريين، ولكن شرط أن يكون الفكر انعكاساً لقيم الواقع، وتعبيراً عن معطيات حضارة المجتمع السابقة.

وفي الواقع العربي والإسلامي، يشكل الإسلام بروحه القرآنية التي تسخّر كل الأشياء للإنسان، وبثوابت القواعد التشريعية المنزلة فيه، وبأحكامه العامة التي لا تتجاوز حدود الزمن والمكان، يشكّل هذا الإسلام منهج المفكر العربي المتصل بالإنسانية والضوء الكاشف لطريق اجتهادات مفكريه. يضاف إلى الإسلام، التجربة الحضارية التي بعثها والتي كانت ثمارها المعروفة في العصور السابقة قاعدة حضارية تركت بصماتها على المستوى العالمي الشامل. واليوم حتى يتحقق التحرر والنهوض، لا بدّ من حل مشكلة الأفكار، وذلك بأنه «علينا أن نستعيد أصالتنا الفكرية، واستقلالنا في ميدان الأفكار حتى نحقق بذلك استقلالنا في ميدان الأفكار حتى نحقق بذلك استقلالنا الاقتصادي والسياسي»[١٥].

تتطلب مشكلة الأفكار حلاً حتى يتهيأ بواسطتها للفكر المستنير مناخ الاستقلال في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية... الخ، ولكن مع الحرص على الأفكار العقيمة، لأنها تعطل العطاء وتمنع التقدم فتصفيها، والقضاء عليها خطوة أساسية على طريق صياغة الفكرة المثمرة، ومثل هذه الأفكار التي لا تنبض بحياة أو حركة لا تقل خطراً عن الأفكار التي يحاول الاستعمار تصديرها إلى المجتمعات الإسلامية، وعلى مبدأ طرفة بن العبد «وظلم ذوي القربى أشد مضاضة». وفي عصور السقوط والتخلف نرى «أن كل مجتمع يصنع بنفسه الأفكار التي ستقتله، ثم تبقى بعد ذلك في تراثه الاجتماعي أفكار ميتة، تمثل خطراً أشد عليه من خطر الأفكار القاتلة، لأن الأولى منسجمة مع عاداته، وتفعل مفعولها في كيانه من الداخل، إنها تكون ما لم تجر عليه تصفية، تكون الجراثيم الموروثة الفتاكة التي تفتك بالكيان الإسلامي الداخلي»[١٦].

يتضح مما سلف أن مقاومة الاستعمار تكون أولاً بمحاولة تحقيق الانتصار في الصراع الفكري، بحيث إذا تمّ ذلك يكون الأمر الطبيعي أن ينتج من ذلك

---

(١٤) ابن نبي، **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة**، ص ٧٧.

(١٥) ابن نبي، **إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث**، ص ٦٢.

(١٦) مالك بن نبي، **في مهب المعركة: إرهاصات الثورة**، [مراجعة وتقديم عمر مسقاوي] (دمشق: دار الفكر، ١٩٨١)، ص ١٣١.

الانتصار السياسي والاقتصادي في المجالات كافة. ولأن الأفكار السامية تكون مقومات لمجتمع سام، فإن التخلف الحاصل في العالم الإسلامي يعود في قسم كبير منه إلى عدم إعطاء الأفكار دورها؛ الأفكار النابعة من الإسلام التي من المفترض أن تأخذ دورها، «كقوة أساسية تنظم وتوجه قوى التاريخ كلها، وتعصمها بذلك من محاولات الإحباط مهما يكن نوعها. وهذه الثغرة تعود في تكوينها إلى شيء من التخلف في تطورنا الاجتماعي... وبسبب هذه الثغرة، فإن دائرة الأفكار تكون معرضة إلى تحدي الاستعمار ومؤامرته دون أن تستطيع الرد اللازم عليه»[١٧].

لذلك، وفي حال عدم تفتح التجربة الإسلامية، لاستيعاب كل الثقافات والعلوم، تعجز الأفكار في إمكانية الدفاع عن نفسها في وجه التحدي الاستعماري، فإنه على العموم تفقد دائرة الفكر الإسلامي إمكانية الدفاع والمواجهة بسبب الضعف المتحكم في الجهاز الفكري، وبذلك، وبقصور التجربة والحصانة الفكرية، يضيع الكثير من الطاقات فلا تقوم بدورها في تدعيم الصراع الفكري مع الاستعمار والذي يجري في البلاد الإسلامية.

وبالتالي إذا كانت معرفة الفكر على هذا الجانب من الأهمية، وإذا كان المفكر هدفاً لهجوم الاستعمار، يحاول تعطيل خططه، وفعالية أفكاره، فإن على هذا المفكر، كي يحقق نجاح أفكاره وتطلعاته، أن يدرس الواقع الذي سيضع له هذه الأهداف وسبل الإنقاذ في أفكاره، وأن يعبّر فيها عن تطلعات الجماعة لا عن نزوات الأفراد. أمّا الأمر الآخر، فهو أن يدقق في كل عمل من أعماله، وكل حركة من حركاته، لتأتي مطابقة لأفكاره، حتى إذا انسجم الفكر والتطبيق في سلوك المفكر، استطاع أن يلعب دور القيادة والتوجيه، وعندها يصعب، بل يستحيل على الاستعمار أن يُحدث شرخاً في العلاقة بين أفكار هذا المصارع له، والشعب الذي صاغ له هذه الأفكار، لتعينه في تحقيق تحرره وتقدمه. وينجح الفكر في صراعه مع الاستعمار وأعوانه وعملائه، إذا أعطى الشعب دوره في القيادة، وفي توجيه أفكاره المكتوبة، حتى يشعر أنها من إنجازه، وأنها التعبير عن صوته وعليه الالتزام بها والدفاع عنها، أما إذا أتته الأفكار المستعارة من الأجنبي، أو إذا كان صاحبها قد ساقها بين جدران أربعة فصب فيها كل قيم الشخصانية والفردية، في هذه الحالة ينجح الاستعمار في صراع الأفكار، وتكون حصيلة

(١٧) ابن نبي، **الصراع الفكري في البلاد المستعمرة**، ص ٩٧.

ذلك تحقيق سيطرته السياسية والاقتصادية، ولذلك، «فإن على من يكتب واجباً إزاء الكلمات التي يكتبها هو أن عليه اتّباعها خارج مكتبه، في معركة الحياة والصراع الفكري؛ أن يتّبعها في عمله في المجتمع، يجب عليه ألاّ يغفل تلك الصلة التي تنشأ بصفة آلية بين من يكتب فكرة ومن يصيرها أو يحاول أن يصيرها عملاً، ومن هنا ينشأ واجب آخر لمن يكتب هو أن تكون له فكرة صحيحة بقدر الإمكان عن شخصية القارئ، الذي يقوم بدور رئيسي في تقرير قيم الأفكار الاجتماعية... وإذا كان الكاتب يوجه القارئ بما يكتب، فإن القارئ يوجه أحياناً الكاتب بموقفه إزاء الأفكار»[١٨]. وإذا نجح المفكر في هذه المهمة يكون قد حقق نجاحاً في الصراع الفكري مع الاستعمار، وعندها تبدأ معركة شاملة على أساس من هذه الأفكار، إنها معركة الحضارة.

خاتمــة

ما يمكن استخلاصه من مشروع مالك بن نبي الحضاري من أفكار حول مفهوم التحرر والاستقلال من كل صنوف التخلف والهيمنة الاستعمارية، هو أن السعي إلى الاستقلال والتحرر يقتضي منذ اللحظة الأولى أن يكون موجهاً توجيهاً فكرياً، وأن يتصف بالأصالة والتجرد من كل التأثيرات الأجنبية لكي تُقلع مركبة الاستقلال بكل وجوهها الحضارية والثقافية، والسياسية، والاقتصادية، وفي كل مناحي الحياة الاجتماعية.

فالتحرر ليس إخراج الجيوش من الأرض بل هو أعمق وأبعد أفقاً، فهو صناعة جديدة للتاريخ، وهدم كل المخالفات السلبية للاستعمار وما أفرزه من قيم اجتماعية هدامة، وبالتالي فالاستقلال أو التحرر هو نجاح أساسه الثقافة والفكر المتحرر والمستنير، وقادر على خلق حضارة متجددة وتحمل في طياتها عناصر القوة وضمانات الاستمرار.

كما يمكن اعتبار المشروع الإصلاحي عند مالك بن نبي حركة تفاعلية تواصلية تلغي السلبية من جعبة التراث، وتترك الفاعلية تؤثر إيجاباً في الحاضر، وتتفاعل مع وقائعه الرامية إلى أهداف مستقبلية تحددها طموحات الفكر المتحرر.

---

(١٨) ابن نبي، **في مهب المعركة: إرهاصات الثورة**، ص ١٣٧.